

دور القناصل الفرنسيين في تعزيز العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا (1700-1830).
The role of French consuls in strengthening diplomatic relations between
Algeria and France (1700 - 1830)

ط د. بوحسان سليم^{1*}، أ. د. مكحلي محمد²

¹ جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس، (الجزائر)، مخبر الفكر الإسلامي في الجزائر، الإيميل salimhistoire13@gmail.com

² جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس، (الجزائر)، الإيميل m_mekahli@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2025-06-03

تاريخ القبول: 21-05-2025

تاريخ الاستلام: 10-03-2025

ملخص:

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى معالجة موضوع خصوصية العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشري (1700-1830)، حيث امتزجت العلاقات قبل هذه الفترة بطابع السلم والتعاون حيناً والعداء والتنافر أحياناً كثيرة، بسبب الأوضاع السياسية الداخلية المتوترة لكل منهما، وتماطل الجانب الفرنسي في كثير من الأحيان عن دفع الضرائب وتقديم الهدايا لداي الجزائر، ونقده لمعاهدات السلم والتعاون بين البلدين، ورغم كل هذا فقد كانت الجزائر كثيراً ما تسعى لتهديئة التوتر وتجنب الخلافات، لكن بحلول القرن الثامن عشر وعقد معاهدة السلم المثنوي بين البلدين اتسمت العلاقات الدبلوماسية بالهدوء والسلم والتعاون، وقد أدى القناصل الفرنسيون دوراً كبيراً في تعزيز العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

كلمات مفتاحية: العلاقات الدبلوماسية؛ القناصل؛ التمثيل الدبلوماسي؛ الجزائر؛ فرنسا.

Abstract :

Through this study, we seek to address the subject of the specificity of diplomatic relations between Algeria and France during the eighteenth and early nineteenth centuries (1700-1830), as relations before this period were mixed with a character of peace and cooperation sometimes and hostility and discord at many times due to the internal political situations available to each of them, and the French side often procrastinated in paying taxes and presenting gifts to the Dey of Algeria, and criticized the peace and cooperation treaties between the two countries, and despite all this, Algeria was often seeking justice, tension and avoiding disputes, but by the eighteenth century and the signing of the Centennial Peace Treaty between the two countries. Diplomatic relations were characterized by calm, peace and cooperation, and the French consuls played a major role in strengthening diplomatic relations between the two countries.

Keywords: Diplomatic relations; consuls; diplomatic representation; Algeria; France.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

يعد موضوع العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر من المواضيع الهامة التي تستهوي الباحثين في تاريخ الجزائر الحديث، خاصة وأن المجال السياسي والدبلوماسي مثلاً نقطة هامة في تاريخ العلاقات بين البلدين، وشكلاً جسراً قويا من جسور التواصل بينهما، فقد عرفت هذه العلاقات قبل القرن الثامن عشر تجاذبات وتنافرات ومرت بمراحل حرجة، بسبب عدم جدية الفرنسيين واحترامهم للاتفاقيات والمعاهدات التي نصّت ونظمت سير العلاقات بين البلدين، وكذلك رفض حكام الجزائر قبول فكرة التمثيل الدبلوماسي، لكن وبدخول القرن الثامن عشر ميلادي عرفت هذه العلاقات طابعا جديدا تميز بالسلم والتعاون وتؤكد الطرفان من ضرورة العمل الدبلوماسي لحل الخلافات وتحسين العلاقات، ومن هنا نطرح الإشكالية التالية:

- كيف كانت العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر؟ وبما تميزت؟ وما مدى مساهمة القناصل الفرنسيين في تعزيزها؟

1. لمحة عن العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا قبل 1700م:

إن الدارس والمتتبع للعلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا خلال الفترة الحديثة يجد أنها كانت حرجة وصعبة ومعقدة وذلك يرجع لرفض حكومة الجزائر قبول فكرة التمثيل الدبلوماسي الفرنسي (قنصل فرنسا بالجزائر)، وهو ما دفع حكومة فرنسا بالتوجه مرارا وتكرارا نحو الباب العالي وإلحاحها على السلطات بالضغط على حكام الجزائر لمباشرة العلاقات السياسية والدبلوماسية الرسمية وقبول مسألة اعتماد القنصل الفرنسي، ومن هنا نطرح التساؤل التالي:

- ما هي الأسباب التي جعلت حكام الجزائر يرفضون فكرة التمثيل الدبلوماسي واعتماد قنصل فرنسي بالجزائر؟

إن من أهم الأسباب التي جعلت حكام الجزائر يرفضون فكرة التمثيل الدبلوماسي واعتماد قنصل فرنسي بالجزائر هي تلك الصلاحيات الواسعة التي منحها سلاطين الدولة العثمانية للفرنسيين منذ معاهدة 1529م ووسّعوها بعد معاهدة الامتيازات في 1536م، المتمثلة في الحصانة القنصلية

والقضاء القنصلي وغيرهما هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ترجع إلى طبيعة وظيفة القنصل (قنان، 1987، الصفحات 38-45).

والجدير بالذكر أن نشير إلى التمثيل الدبلوماسي الجزائري بفرنسا، فمن خلال تفحصنا لنصوص المعاهدات المبرمة بين الجزائر وفرنسا وابتداء من معاهدة 21 مارس 1619م والتي تعد أول معاهدة سياسية ودبلوماسية بين البلدين، نجد أن فكرة التمثيل الدبلوماسي الجزائري قد وردت وهو ما أقره البند الثامن من هذه المعاهدة حيث جاء فيه "يتعين على كل من فرنسا والجزائر تعيين ممثلين لها لرعاية مصالحهما وتحسين العلاقة بينهما" (قنان، 1987، الصفحات 263-265).

وأما بالنسبة للمهام الدبلوماسية نجد أن المبعوث الفرنسي بالجزائر كانت مهامه واضحة تتمثل في إدارة شؤون القنصلية ورعاية مصالح حكومته ورعاياه، بينما الممثل الجزائري لم تحدد مهامه بصورة واضحة، ولم تعطه المعاهدات تسمية "القنصل" كما كانت تطلق على الممثل الفرنسي، بل كانت تطلق عليه عبارة "الرهين" وهو أمر يستدعي الدهشة، ويبدو أن هذه الصفة هي ما جعلت حكام الجزائر يمتنعون عن إيفاد مبعوث عنها، وإذا ما نظرنا إلى السبب الحقيقي لامتناع الجزائر عن إيفاد ممثل لها بفرنسا هو ما تعرض له ممثلها بمدينة مرسيليا السيد "حمزة" وهو أحد ضباط الديوان الذي تم تعيينه بهذا المنصب، لإهانات شتى وانتهى المرسيليون بطرده في الأخير (غطاس، 1984، صفحة 14)، وهو ما أثار سخط الديوان وبهذا تكون قد انتهت تجربة الجزائر في التمثيل الدبلوماسي.

وتشير المصادر أنه خلال الفترة الممتدة ما بين (1619-1700) تعاقب على الجزائر عدة مبعوثين دبلوماسيين، ابتداء من القنصل "فانسون بيرطول Vincent Bertholle" الذي تم اعتماده من الملك الفرنسي شارل التاسع في تاريخ 15 سبتمبر 1564م/972هـ، و"بترمول Petromole" 27 سبتمبر 1565م، و"صورون Sauron"، و"بيونو P.Bionneau" سنة 989هـ/1581م، و"دوفياس M.de Vies" في سنة 994هـ/1586م وغيرهم، إلا أن نشاط هؤلاء الدبلوماسيين لم ينجح وباء بالفشل، نتيجة للصراعات التي كانت تحدث بين البلدين.

2. واقع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين (1700-1830):

لدراسة العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وتكوين فكرة صحيحة عنها، يجب علينا الإشارة أولاً إلى معاهدة السلم المئوي ودورها في تثبيت العلاقات وإقرار السلم ورسم صورة واضحة عنها، باعتبارها الحدث الهام والبارز الذي تم على إثره رسم العلاقات بين البلدين وإضفاء الطابع الرسمي عليها بغية تعزيزها وتمتين أواصرها ووضعها في سكة الطريق السوي، بعدما شهدته من توترات وتجاذبات وتنافرات.

1.2. معاهدة السلم المئوي 24 سبتمبر 1698:

تم إبرام هذه المعاهدات بين إيالة الجزائر وفرنسا عقب الحملة التي قادها "دوستري déstreés" (بوعزيز، 2013، صفحة 89) على مدينة الجزائر وعجز "لويس الرابع عشر" عن التصدي للبحرية الجزائرية وعن تموين الحرب وانتهى القصص بإبرام معاهدة السلم في 24 سبتمبر 1698، وهي امتداد لمعاهدة السلم التي عُقدت في 24 أبريل 1684، وقد تم بموجب هذه المعاهدة الاتفاق على تسوية جملة من النزاعات القائمة بينهما من بينها، الامتيازات، حرية الملاحة، المبادلات التجارية، وكانت مسألة فدية الأسرى هي المسألة البارزة في هذه المعاهدة (سعد الله، 1986، صفحة 321).

وقد تميزت العلاقات الدبلوماسية الجزائرية الفرنسية خلال هذه المائة سنة بالاستقرار والتعايش السلمي، وإن حدث وتخللتها بعض الحوادث والتصادمات، فإنها لم تؤدي في وقت من الأوقات إلى القطيعة، بل كانت تسعى دائماً لإيجاد حلول للمشاكل والتوترات التي تواجهها خصوصاً بعدما كرست مبدأ التعامل الندي للنند، واحترام المصالح لكل من الطرفين المتعاقدين، وكان ذلك عاملاً أساسياً في استقرار السلم (الجيلالي، 2007، الصفحات 196-197).

ومن خلال هذه اللمحة عن معاهدة السلم المئوي يتضح لنا طبيعة سير العلاقات الدبلوماسية بين إيالة الجزائر وفرنسا خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ميلاديين.

3. مساهمة القناصل في تثبيت العلاقات بين البلدين:

نتج عن معاهدة السلم المئوي 1689م بين الجزائر وفرنسا إنهاء الخلافات القائمة بين البلدين وطي صفحة الحملات العسكرية، وتكريس مبدأ التعامل الندي للنند واحترام المصالح

المتبادلة وإرساء دعائم السلم لمدة مائة سنة، وبدخول القرن الثامن عشر ميلادي غيرت فرنسا من سياستها الخارجية مع الجزائر وانتقلت من "سياسة العصا" إلى "سياسة اللين" بعد فشلها في الحملات العسكرية على الجزائر وتأكدها من عجزها وعدم قدرتها على مواجهة الجزائر اقتصاديا وعسكريا وفي هذه المناسبة نأتي على ذكر قول "وليام سبنسر" حول نتائج سياسة أوروبا مجتمعه ضد الجزائر: "وقد أظهرت الوقائع الثابتة أن مختلف الحملات الأوروبية التي جردت ضد الجزائر قد أثبتت عجز السياسة الخارجية الأوروبية (بالمعنى الجماعي) حينما جوبهت بأمة قوية في الداخل، ومصممة ومتحدة" (سبنسر، 2006، صفحة 178)، وبدا ذلك جليا في استجابة فرنسا لنصائح قناصلها العاملين في الميدان، بعدم تعزيز صفو التجارة بالحرب، وضرورة الفصل على أرض الواقع بين السياسة والتجارة، كما نصت على ذلك المعاهدات والاتفاقيات، وهو مبدأ كرسته السلطات الجزائرية في دبلوماسيتها بحيث كان لها وضوح في الرؤيا والتمييز بين المجال السياسي والتجاري، إذ أنها كانت تعتبر أن مصالح الدولة يجب أن توكل إلى أشخاص ليس لهم علاقة بالنشاط التجاري (قنان، 1987، صفحة 255).

ولقد أدى القناصل الفرنسيون في الجزائر خلال القرن الثامن عشر ميلادي دورا هاما في تثبيت العلاقات السياسية والدبلوماسية بين البلدين نظرا للصلاحيات الواسعة التي منحها لهم السلطات الفرنسية، والحصانة الدبلوماسية التي وفرتها لهم الحكومة الجزائرية، ونظرا لأن فرنسا تعد أول دولة أوروبية حصلت على امتيازات سياسية ودبلوماسية في الجزائر، وقنصلها هو أول قنصل أوروبي في الجزائر فإنه تمتع بما يعرف بالأسبقية الدبلوماسية، ولكي يتسنى لنا فهم سير نشاط القناصل السياسي والدبلوماسي يجب علينا أن نأتي على ضبط وتعريف المفاهيم والمصطلحات التالية:

1.3. الدبلوماسية Diplomatie:

تعرف الدبلوماسية بأنها فن الحوار والتفاوض بين الدول عن طريق ممثلهم ومحاولة التوصل إلى أكبر قدر من المصالح الاستراتيجية على حساب الخصم، والدبلوماسية هي كلمة يونانية مشتقة من اسم "دبلوما Diplôma" المأخوذة من الفعل "دبلوم Diplôme"، تعني الوثيقة الرسمية المطوية الصادرة عن أصحاب السلطة والتي كان يبعث بها حكام المدن الإغريقية إلى

بعضهم البعض في علاقاتهم الرسمية (علي، 1991، صفحة 51)، وكانت تمنح حاملها امتيازات معينة.

ولقد تعددت تعريف الدبلوماسية بحيث يصعب جمعها في تعريف واحد، ولعل من أقدم التعاريف التي تناولت مصطلح الدبلوماسية هي القول المشمول للخليفة معاوية بن أبي سفيان "لو كان بيني وبين الناس شهرة لما انقطعت، إذا أرخواها شددتها، وإن شدوها أرخيتها" (الموسي، 2005، صفحة 16)، ومن أشهر التعاريف نجد تعريف "هارولد نيكلسون Harold Nicolson" في قاموس أوكسفورد حيث يعرفها بـ: "الدبلوماسية هي إدارة العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات والأسلوب الذي يستخدمه السفراء والمبعوثون لإدارة وتسوية هذه العلاقات، وهي وظيفة الدبلوماسي أو فنه" (نيكلسون، 1957، الصفحات 04-05)، ويوضحها "ريفير Rivier" في ثلاث معان وهي "علم وفن تمثيل الدول والمفاوضات، وقد تعني الدبلوماسية مجموعة من الأشخاص القائمين بالوظيفة الدبلوماسية، سواء منهم من عمل في وزارة الخارجية أو في الخارج، وأخيرا قد تطلق على الوظيفة أو المهنة الدبلوماسية ذاته" (سرحان، 1986، الصفحات 10-11).

وأما قانونيا فلا يوجد مدلول واحد لمصطلح الدبلوماسية، فالبعض يعني بها "فن توجيه العلاقات الدولية" أو "السياسة الخارجية للدولة" وهناك من يرى بأنها "فن تمثيل الدول" أو "علم العلاقات والمصالح المتبادلة" (عبد السلام، 2000، الصفحات 08-09).

وقد تطور مفهوم الدبلوماسية عبر العصور، ففي العصور القديمة والوسطى لم يكن التمثيل الدبلوماسي دائما بل كان مؤقتا وكان يقول على بعثة الرسل والمفاوضات لعقد المعاهدات والاتفاقيات، ومع العصر الحديث بداية من القرن الخامس عشر تغير مفهوم الدبلوماسية بفضل عصر النهضة، وكان من أوائل بواذر هذا التغير اعتماد مبدأ التمثيل الدبلوماسي الدائم، وهو ما بادرت إليه الدول الأوروبية حيث أقامت السفارات واعتمدت البعثات الدبلوماسية الدائمة التي بدأت تتوسع وتنتشر منذ القرن السابع عشر (الشامي، د ت، صفحة 92)، ومن أهمها فرنسا.

2.3. الدبلوماسية الفرنسية Diplomatie Française:

اهتمت فرنسا بالدبلوماسية منذ العصور القديمة لكنها لم تكن دائمة وكانت تقليدية، ومع بروز عصر النهضة في أوروبا وتغير مفهوم الدبلوماسية برز الاهتمام الفرنسي بها منذ أوائل القرن

السابع عشر ميلادي، وكان لوصول الكاردينال "ريشيليو C.Richelieu" إلى مجلس الوزراء الفرنسي عام 1624م الأثر الكبير في تطور الدبلوماسية على صعيد النظرية والممارسة، حيث قام بتأسيس أول جهاز مركزي دائم لرسم السياسة الخارجية بهدف تتبع سير المفاوضات والإشراف على إقامة علاقات دائمة مع الدول الأخرى (الشامي، د ت، الصفحات 96-97)، ومن بين المبادئ الدبلوماسية الهامة التي أرساها "ريشيليو C.Richelieu" نذكر (بركات، 1985، صفحة 41):

*تقديم مصلحة الدولة باعتبارها مصلحة ثابتة على أي اعتبار، حيث تجيز لها الدخول في تحالفات مع أي دولة طالما أن هذا التحالف يخدم هذه المصلحة.

*تكليف وزير واحد بالمفاوضات وجعلها مهنة منوطة به حتى تكون فعالة.

*النظر بحذر إلى المعاهدات خلال مرحلة التفاوض، ولكن عند الوصول إلى اتفاق فينبغي احترامه والالتزام به.

وقد انتشرت لفرنسا سفارات دائمة في معظم الدول الأوروبية والإيلات العثمانية خاصة بعد 1675م، حيث أصبحت الخدمات الخارجية الفرنسية أوسع من خدمات أي دولة أخرى (نيكلسون، 1957، الصفحات 123-135)، وعملت فرنسا على تأطير الدبلوماسية وفق أطرها القانونية والسياسية مركزة في ذلك على مصالحها، فنجد أنها كانت تعطي التعليمات مكتوبة إلى سفرائها قبل سفرهم وتحثهم على إتباعها، وبعض الأمور المتعلقة بالأقدمية والاستباق وكتاب الاعتماد وخطب تقديم السفراء، وقد اتسمت هذه التعليمات بالشمولية والإحاطة بجميع نواحي الحياة السياسية في الدولة الموفد إليها، وهو ما كانت تركز عليه في علاقاتها مع حكام الجزائر، فكثيرا ما كانت تسعى للتدخل في شؤون سياسة الإيالة وتعيين الحكام والمسؤولين، وقد اعتمدت على اللغة الدبلوماسية الفرنسية التي أصبحت لغة الاتصال منذ القرن الثامن عشر ميلادي، ومن أشهر الدبلوماسيين الفرنسيين "دي كالير D.Callieres"، الذي أصدر كتابه عن أسلوب المفاوضة مع الملوك عام 1716م وأصبح ذلك الكتاب من أهم المراجع الدبلوماسية في ذلك العصر (الموسي، 2005، صفحة 51).

ومن خلال ما أوجزناه عن الدبلوماسية الفرنسية في العصر الحديث، نجد أن فرنسا عملت على تطوير دبلوماسيتها وأسست لها مبادئ تقوم عليها تعتمد على اختيار ممثلها وكفاءتهم والإحاطة

بجميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والتجارية...، في الدولة الموفد إليها وخصوصا علاقاتها بالجزائر نظرا إلى العلاقات الكبيرة التي كانت تربطهما، مركزة على مصالحها ولو على حساب مصالح الجزائر، في حين نرى أن الجزائر لم تركز على العمل الدبلوماسي ولم تعمل على تطويره، وهذا ما جعل الجانب الفرنسي يتفوق على الجانب الجزائري ويستنزف ثرواته ويتحكم في تجارته.

3.3. القنصلية Consulat:

هي المبنى أو المكتب الذي يستخدمه القنصل وتعود جذور المؤسسة القنصلية إلى النصف الثاني من العصور الوسطى (الموسي، 2005، صفحة 149)، حيث أن التجار في المدن التجارية الأوروبية كانوا يختارون من يمثلهم ويصهر على حماية مصالحهم في المراكز التجارية، مثل ما فعل التجار المرسيليون بالمراكز التجارية في الشرق الجزائري كما أسلفنا الذكر، وقد توسعت المؤسسة القنصلية في العصر الحديث من خلال نظام "الامتيازات Les Capitulations"، فبعد التقارب الفرنسي العثماني وتوقيع معاهدة الامتيازات استطاع التجار الفرنسيون أن يحصلوا على امتياز صيد المرجان بالسواحل الشرقية الجزائرية ويؤسسوا ما يعرف بـ "حصن فرنسا Bastion" كنقطة ارتكاز في عام 1560م، من قبل التاجر "لانش طوماس Thomas Linch"، ولم يبدأ العمل على نظام القنصليات في العالم حتى بداية القرن التاسع عشر ميلادي في فرنسا.

4.3. القنصل Consul:

هو ممثل دبلوماسي ترسله حكومة بلاده إلى دولة أخرى لرعاية مصالح البلاد التجارية والاقتصادية والحقوق والمصالح الشرعية لمواطني البلاد ومن يتمتعون بشخصية اعتبارية عائدة لها وبحصانة دبلوماسية كاملة، ويعرفه "ابن زيدون" فيقول: "هو موظف تعينه إحدى الدول في البلاد الأجنبية... ولاسيما في الثغور، لحماية رعايا دولته المقيمين والعابرين..." (القدوري، 2012، صفحة 306)، ويعود أصل الكلمة إلى اللغة اللاتينية ومعناها مستشار، بحيث كانت تطلق على الحكام، ثم أصبحت تطلق على القضاة الذين ينظرون في المنازعات بشؤون التجارة والملاحة (محمد، 1995، صفحة 92)، ومع العصر الحديث أخذت تطلق على القناصل التجار الذين تتمثل مهمتهم في مرافقة السفن التجارية والإشراف على السير الحسن لنشاط البحارة والتجار والفصل في منازعتهم فأطلق

عليهم "قناصل البحر Consuls de mer" (بليل، 2017، صفحة 301). ومع بداية القرن السابع عشر ميلادي أصبح له مقر إقامة في الدولة الموفد إليها لممارسة نشاطه مثلما أسلفنا من قبل.

5.3. الحصانة الدبلوماسية Immunité diplomatique:

تعد الحصانة الدبلوماسية من أهم الامتيازات التي تركز عليها العلاقات الدولية، وهي تعني الحصن أو المكان المحصن الذي يقيم فيه الممثل الدبلوماسي بحيث لا يمكن إلحاق الضرر به، ويتمتع بامتيازات واسعة من بينها عدم ممارسة الدولة المضيفة سلطاتها القضائية أو المالية على القناصل والمبعوثين الدبلوماسيين، وله حرية التصرف في تسيير نشاط دولته في الدولة المضيفة، وهذا ما كانت تكرسه فرنسا مع الجزائر من خلال قناصلها في علاقاتها التجارية والاقتصادية، وقد نص البند الحادي عشر من معاهدة 21 مارس 1619م على أن يتمتع القنصل بكامل حقوقه وأن يعيش باستقرار مع كل التكريم، ولا يحق لأي كان أن يدخل بيته أو يلحق الضرر به (قنان، 1987، صفحة 268)، وأي هجوم على الممثل الدبلوماسي يعتبر هجوما على بلاده وهذا ما يؤدي إلى الحرب، وكثيرا ما كان يحدث هذا مع الجزائر وفرنسا كما تطرقنا إلى ذلك سابقا.

6.3. الأسبقية الدبلوماسية Préséance diplomatique:

يقصد بها حق التقدم بين الشخصيات الدولية الدبلوماسية والحكومات والهيئات الرسمية استنادا إلى القواعد والأعراف الدولية (العادة، 1974، صفحة 325)، وبذلك فهي تشمل مسألة حق التقدم والصدارة بين الدول ورؤساءها، وممثليها الدبلوماسيين والقنصلين، وهي الأولوية التي يحظى بها القنصل أو السفير على غيره من نظرائه في الاستقبال أو في تأدية بروتوكولات التهنئة وغيرها.

ولقد كانت الأسبقية في العصر الحديث الشغل الشاغل لملوك أوروبا وسفرائهم وكان التنافس عليها شديدا، وهو ما كان ساريا في الجزائر بين القناصل الأجانب وبالأخص قنصلا فرنسا وانجلترا، بحيث أصبحت يتسبب كثيرا في ظهور المنازعات والحروب وتحولت إلى مشكلة عويصة بين الجزائر والدول الأوروبية، وخاصة فرنسا التي كانت تعتبر أن قناصلها لهم الأسبقية والأولوية على باقي القناصل الأوروبيين.

ويعتبر القنصل الفرنسي بالجزائر أول القناصل الأوروبيين الذي حظي بأسبقية دبلوماسية، نظرا للأقدمية التي تضمنتها المعاهدات والاتفاقيات مثل البند السابع من معاهدة 17 ماي 1666م والذي جاء فيه: "إن القنصل المعني سيتمتع بالتكريم والتسهيلات وكل الامتيازات التي منحتها أو ستمنحها في المستقبل للاتفاقات... وهذا الخصوص فإن القنصل الفرنسي سيتمتع بحق الأولوية والسبق على غيره من القناصل" (قنان، 1987، صفحة 286)

ولقد اتصفت السياسة الخارجية الجزائرية بالمرونة والنباهة وسرعة التصور وحنكة حكامها، وكان لهم فهم عميق للنوايا الفرنسية القائمة على المطامح والمناهضة للجزائر والطمع في خيراتها وثرواتها، لذلك نجدها في الجانب العسكري ركزت على تقوية أسطولها البحري لمواجهة المخاطر والحمولات الأوروبية والفرنسية خاصة، أما في المجال السياسي فقد ركزت على التمثيل القنصلي لحل المشاكل والخلافات، وذلك حفاظا على فوائدها ومصالحها ومن هنا نأتي على قول "وليم سبنسر" حيث يقول: "سارت العلاقات الخارجية للإيالة خلال القرون الثلاثة الأولى بطريقة عجيبة للمحافظة على فوائد الدولة وتقدم الزيادة فيها وذلك بعدم النظر كليا لأعمال مناهضتها... واتسمت بالافتناع المطلق بالتفوق البحري (سبنسر، 2006، صفحة 162)

وقد وجدنا أن الحنكة السياسية لدى حكام الجزائر آنذاك ونظرتهم الواسعة للعلاقات مع فرنسا جعلت أعينهم منصبّة على القناصل ونشاطاتهم وكانوا يدركون جيدا أنهم أعين فرنسا في الجزائر، فقد كانوا يراقبون عن كثب ويتتبعون كل النشاطات التجارية التي كانت تتم في مختلف الموانئ الجزائرية ومن ثمة يرسلون عنها تقارير مفصلة إلى مختلف الهيئات الفرنسية (شويتام، 2011، صفحة 71)

ولم يكن حكام الجزائر يتسامحون مع هؤلاء القناصل عند كل خطأ أو تقصير في واجباتهم أو التأخير عن تقديم الهدايا، فكثيرا ما كانوا يُطردون أو يزجون بهم في السجن مثل ما فعلوا مع القنصل "لومير Le maire" عندما أزعج حكام الجزائر وقل من الاحترام، حيث أنه كان حريص على مصالحه ويكثر من شكاويه وكانت نواياه سيئة ضد حكام الجزائر حيث كتب: "...أنت عندما تريد أن تبين لهم (حكام الجزائر) الأمور برفق يفرضون عليك الصمت، وإذا عرضتها بقوة يصرخون كبائعات السمك دون أن يكون لك وقت للاستفسار (فارس، 1969، صفحة 134)، وأمام هذه

الحادثة اقتنعت فرنسا أنه لابد من بعث قناصل ذوا كفاءة عالية ورأت أنه يجب التركيز على العمل الدبلوماسي لكسب صداقة الجزائر.

وعلى هذا الأساس نجد أن فرنسا خلال القرن الثامن عشر ميلادي اعتمدت بشكل كبير على التمثيل الدبلوماسي في سير علاقاتها مع الجزائر وحل خلافاتها معها، وقد اتبع قناصلها استراتيجية تقوم على اكتساب مودة حكامها والتقرب منهم، ومن أهم الطرق التي اتبعوها هي تقديم الهدايا وقد كانت فرنسا سباقة لهذا، بحيث أن الهدايا التي كان يقدمها القناصل الفرنسيين للحكام الجزائريين أدت دورا فعالا في تثبيت السلم وضمان سلمية العلاقات، وهذا ما يستدعي منا أن نُعرِّج على دور الهدايا، ومن هنا نطرح التساؤل التالي:

- كيف ساهمت الهدايا القنصلية في تعزيز العلاقات وتثبيت السلم بين البلدين؟

4. مساهمة الهدايا القنصلية في تعزيز العلاقات بين البلدين:

أدّت الهدايا التي كان يقدمها القناصل الفرنسيون إلى حكام الجزائر في إطار العلاقات الدبلوماسية دورا مهما في تشكيل العلاقات بين البلدين سواء كان ذلك بشكل إيجابي أو سلبي، وقد حظي موضوع الهدايا والهبات اهتمام الكثير من الباحثين والدارسين المتخصصين في مجال العلاقات السياسية والدبلوماسية بين البلدين، منهم "مارسال مورس Marcel mause" الذي يعد أول من اهتم بأهمية الهبة داخل المجتمعات الإنسانية وما يترتب عنها من أبعاد اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية (بليل، 2017، صفحة 124)، وخلص إلى أن الهبة تمثل ترابط التزامات ثلاثة: العطاء، القبول، الرد (قدوري، 2003، صفحة 176)، وهذا ما جعل القناصل الفرنسيون يتسارعون إلى تقديم الهدايا لحكام الجزائر لترضيهم ولتحسين العلاقات بين البلدين والاستفادة من الامتيازات التجارية والاقتصادية.

وفي المقابل نجد أن هذه الهدايا مثلت مصدرا ماليا بالنسبة للإيالة كما أورد ذلك "وليم سبنسر" حين يقول: "هناك ثلاث مصادر مالية إضافية للعائدات التي كانت تأتي عن طريق المعارك التي يخوضها القراصنة وهي: الهدايا والحمولات والجزية التي يدفعها الأوروبيون" (سبنسر، 2006، صفحة 135)، إلا أننا نختلف معه في موضوع الهدايا الذي قال عنه أنه كان يأتي عن طريق المعارك التي يخوضوها القراصنة، غير أن الوقائع التاريخية تثبت عكس ذلك لأن فرنسا وغياها من الدول الأوروبية كانت تقدم هذه الهدايا في مناسبات متعددة تقريبا وبحثا لقضاء حاجة أو مصلحة

ما، ومنها تشكل قاعدة صلبة تُبنى عليها جسور العلاقات السياسية والدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا خاصة وبقيّة الدول الأوروبية عامة.

ومن الواضح أن الهدايا أضحت إحدى الطرق الناجعة التي لجأ إليها القناصل الفرنسيون للحصول على امتيازات تجارية واقتصادية وحتى سياسية في الجزائر، بحيث لم يتوانوا عن التقرب من كبار الموظفين في الإيالة وتقديم الهدايا لهم بحجة الصداقة وتمتين الروابط لتسهيل المعاملات خدمة لمصالحهم، ونلمس ذلك من خلال الهدية التي أهداها القنصل الفرنسي "دوفال Duval" إلى الأغا وهي عبارة عن مسدسان مرصعان بالذهب والفضة اشتراها من بيت باري التجاري (بليل، 2017، صفحة 142).

ومن المؤكد أن وجود القناصل الفرنسيين بالجزائر ارتبط بنظام الامتيازات الذي ظهر مع السلطان العثماني "سليمان القانوني"، والذي أعطى لهم امتيازات تجارية واقتصادية واسعة ولا سيما السياسية، بحيث أجاز للقناصل حق الإشراف على مواطنهم وحل النزاعات التي قد تنجم بينهم (الصباغ، 1975، صفحة 128).

وقد أقام بالجزائر مجموعة من القناصل الفرنسيين وأولهم "بيرطول" و"صورون" و"بيونو" و"دوفياس" و"لومير" و"صانصون نابللون" و"دوفال" وغيرهم كثيرون، تمكنوا من أن يحصلوا على امتيازات عديدة من حكام الجزائر منها: صيد المرجان، احتكار تجارة الحبوب وتصديرها، إقرار السلم، التمثيل السياسي والأسبقية الدبلوماسية.

وتجدر بنا الإشارة إلى أن الهدايا ساهمت في تسهيل المفاوضات بين الجزائر وفرنسا لاسيما المتعلقة بقضية الأسرى، فقد سهلت من عمليات الافتداء للأسرى والتخفيف من المشاكل بين البلدين، وهنا نأتي على ذكر المهمة التي قام بها "صانصون نابللون" في افتداء الأسرى حيث ورّع على كبار الإيالة هدايا بقيمة 70000 ليرة فرنسية (بليل، 2017، صفحة 138).

الجدول التالي يوضح لنا قيمة الهدايا الفرنسية للجزائر بالليرة وتطورها خلال القرن 18م

وأوائل القرن 19م (Plantet، 1930، صفحة 50)

السنوات	1742	1763	1774	1791	1805	1811	1814
القيمة بالليرة	6400	13200	16600	48500	80000	150000	113000

المصدر: (Plantet Eugène, Les Consuls de France à Alger avant la Conquête (1579-1830), Paris, 1930, P 50.)

5. خاتمة:

من خلال معالجتنا لموضوع العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ميلاديين خلصنا إلى مجموعة من النتائج يمكن أن نجعلها في النقاط التالية:

إن العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا لم تكن وليدة القرن الثامن عشر ميلادي بل كانت سابقة له، حيث أن التمثيل الدبلوماسي الفرنسي في الجزائر ظهر منذ تعيين أول قنصل فرنسي بالجزائر "فانسون بيرطول" في 15 سبتمبر 1564م، لكن هذا التمثيل لم يأخذ صبغة رسمية وطابعا سلميا ولم ينجح في تسيير العلاقات وحل الخلافات والتوترات، إلا في القرن الثامن عشر ميلادي.

تعتبر معاهدة السلم المئوي سنة 1698م بين الجزائر وفرنسا الأرضية التي مهدت لترسيم العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، ومفتاح كل العلاقات القائمة بينهما، حيث أن بنودها أنهت الخلافات القائمة وسوّت النزاعات، ورسمت طريق سير العلاقات بينهما في إطار المصالح المتبادلة، وأسست لانطلاقة جديدة في تاريخ البلدين غلب عليها طابع السلم والتعاون.

اتسمت العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا طيلة القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ميلادي بالجدية والنشاط والسلم والتعاون، حيث أنها نجحت في تثبيت السلم وتجنب الصراع والتوتر، وطي صفحة الحملات العسكرية، وتكريس مبدأ التعامل الندي للندي واحترام المصالح المتبادلة وإرساء دعائم السلم.

ساهم القناصل الفرنسيون في تعزيز العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وقد بدا ذلك جليا في النصائح التي قدموها للحكومة الفرنسية القاضية بضرورة تبني التمثيل الدبلوماسي مع الجزائر، قصد تحسين العلاقات وسلميتها، وكذا تقريرهم من حكام الجزائر وترضيتهم بالهدايا والسعي لكسب ودهم ورضاهم، وحرصهم على تطبيق أوامرهم وعدم مناقشتها لتجنب إزعاجهم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. المؤلفات / الكتب:

1. أبو القاسم سعد الله، (1986)، أبحاث آراء في تاريخ الجزائر، ج2، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر.

2. أرزقي شويتام، (2011)، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، دار الكتاب العربي، الجزائر.
3. جعفر عبد السلام، (2000)، قانون العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، القاهرة.
4. جمال بركات، (1985)، الدبلوماسية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، مطابع الفرزدق، الرياض.
5. جمال قنان، (1987)، معاهدة الجزائر مع فرنسا 1619-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
6. رحمونة بليل، (2017)، القناصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من 1564 إلى 1830، دار القدس العربي، الجزائر.
7. سموحي فوق العادة، (1974)، معجم الدبلوماسية والشؤون الدولية، مكتبة بيروت، بيروت.
8. صالح زهرة عطا محمد، (1995)، أصول العمل الدبلوماسي والقنصلي، ط1، دار النشر، الرباط.
9. عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، (2007)، تاريخ الجزائر العام، ج3، دط، شركة دار الأمة، الجزائر.
10. عبد العزيز محمد سرحان، (1986)، قانون العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، جامعة عين شمس، القاهرة.
11. عبد الفتاح علي الرشدان، محمد خليل الموسي، (2005)، أصول العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، المركز العلمي للدراسات السياسية، عمان.
12. عبد المجيد القدوري، (2012)، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، ط2، المركز الثقافي العربي، المغرب.
13. عبد المجيد قدوري وآخرون، (2003)، التاريخ والدبلوماسية قضايا المصطلح والمنهج، منشورات كلية الآداب، الرباط.
14. علي حسين الشامي، (د ت)، الدبلوماسية، نشأتها وتطورها ونظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية، دار العلم للملايين، بيروت.
15. ماجد إبراهيم علي، (1991)، مبادئ العلاقات الدولية، القاهرة.
16. محمد خير فارس، (1969)، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشرق، سوريا.
17. هارولد نيكلسون، (1957)، الدبلوماسية، ترجمة: محمد مختار الزقزوقي، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة.
18. وليام سبنسر، (2006)، الجزائر في عهد رياس البحر، تعليق وتقديم: عبد القادر زبادية، دط، دار القصبة للنشر، الجزائر.
19. يحيى بوعزيز، (2013)، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، عالم المعرفة، الجزائر.
20. Eugène Plantet, Les Consuls de France à Alger avant la Conquête (1579-1830), paris, 1930.
2. الرسائل الجامعية / الأطروحات:
 21. عائشة غطاس، (1984)، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن 17 (1619-1694)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، الجزائر.
 3. الأبحاث في المجلات العلمية / المقالات:
 22. ليلى الصباغ، (1975)، وضع الجاليات الأوروبية في العلم العربي الإسلامي إبان الحكم العثماني، مجلة الاصاله، العدد 25، الجزائر.